EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

تاريخ انثروبولوجيا الاتصال ومجالاتها البحثية:
الجزائر كفضاء للبحث

The history of the anthropology of communication and its reaserch domains Algeria as a search space

نجاة لحضيري[1،*]
[1] المركز الوطني للبحث في علم الإنسان الاجتماعي والثقافي، nadjatlahdiri@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 30/ 12 / 2021 تاريخ النشر: 13/ 01 / 2022

ملخص:
يهدف إعطاء لمحة عن تاريخ انثروبولوجيا الاتصال كتخصص قائم بذاته مع اقتراح مجالات بحثية ابستيمولوجية وميدانية جديدة للاستخدام والتفاعل وكيفية استغلال الوسائل الاتصالية الرقمية منها والكلاسيكية في الجزائر بشكل أمثل؛ بدءاً بتوظيف الأدوات البحثية والمنهجية التي تساعده على تحديد المعطيات وجمعها وتحليلها وانتهاء بتقديم حلولا ناجعة لمسائل الاتصال من الوجهة الانثروبولوجية . فمن المعلوم أن الاتصال هي عملية تبادل رسالة من مرسل إلى مستقبل عبر قناة. وقد شهد كسلوك تواصلي وكعملية تفاعل اجتماعي تطورا ملحوظا في التطبيقات والوسائل والأهداف وحتى في بنية الجمهور المستهدف، نظرا للتطور التكنولوجي المتسارع ولتغير أجندة الاتصال عامة من حيث الهدف والوقت والزمن والفاعل في المجتمع الراهن تحديدا. لذلك طرحت الورقة البحثية التساؤل التالي: ماهية أنثروبولوجيا الاتصال وتاريخ هوما هي مجالات البحث الجديدة في الفضاء الجزائري؟
الكلمات المفتاحية: الاتصال؛ الانثروبولوجيا؛ انثروبولوجيا الاتصال؛ البحث؛ التاريخ؛ الجزائر.

Abstract:
Giving a history of anthropology of communication discipline, and proposing new epistemological and field research areas for use, interaction, and methods for optimal exploitation of digital and classical media in Algeria; by adopting the various tools of identifying, collecting and analyzing data and providing effective solutions to communication issues. Communication is a process of exchanging messages from a sender to a receiver over a channel. As a communicative behavior and a social interaction process, it has witnessed development in applications, means, goals and in the composition of the target audience due to the rapid technological development and the change in the communication agenda. So what is the anthropology of communication and how did it developed historically, and what new areas of research are concerned in Algeria?
Keywords: Algeria ; Anthropology ; Anthropology of communication ; Communication ; History ; Research.

* نجاة لحضيري

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

مقدمة

يعتبر الاتصال ظاهرة اجتماعية وإنسانية قديمة وهو كفعل اجتماعي لازم الإنسان منذ التاريخ القديم نظرا لحاجته للتواصل مع بني جنسه. يقوم الاتصال على أربع عناصر رئيسية تتمثل في: المرسل، والمستقبل، والوسيلة والرسالة؛ وقد شهد تطورا لافتاً عبر التاريخ جراء التطور التكنولوجي الحاصل في الوسيلة؛ ليسمح له بالانتقال من الأسلوب التقليدي إلى النمط الحديث القائم على السرعة والآنية وإلغاء الحواجز الزمانية والمكانية. كان في بدايته اتصالاً شفوياً، ثم مكتوباً فجماهيرياً وأخيرا رقمياً ليُعرف بتسمية "الإعلام الرقمي". ولكون الاتصال عملية شخصية وجماعية في الوقت نفسه، فهو مهم وضرورة لابد منها في حياة الفرد لا يمكن الاستغناء عنه.

تتولى الأنثروبولوجيا مهمة دراسة الإنسان ككائن اجتماعي في محيطه من حيث سلوكه و علاقته ببيئته في إطار المجالات المتنوعة التي تشد اهتمامه. وقد عرفت كعلم وتخصص قائم بذاته ضمن العلوم الإنسانية والاجتماعية تطوراً معتبراً بتفرعاتها المتعددة: الأنثروبولوجيا الثقافية، الانثروبولوجيا الاجتماعية، الانثروبولوجيا التاريخية، الانثروبولوجيا الدينية، انثروبولوجيا الاتصال ... وغيرها. فهي - بناء على ما ذُكر- تقوم بدراسة سلوك الإنسان وعلاقته داخل مجتمعه. وقد كانت في البداية تعتمد على المقاربة الإثنوغرافية التي تدرس الإنسان انطلاقا من الملاحظة مع المعايشة، التي تقدم وصفا دقيقا لسلوكه في الحياة اليومية وبكل ما يربطه بعاداته وثقافته ونمط عيشه عن كثب، والتي ترتكز كثيرا على التفاصيل المُعاشة والتي تمت ملاحظتها، ثم تطورت لتتحول إلى علم دراسة الانسان من كل النواحي، في بيئته المحلية مثل دراسة عادات الاستهلاك، وطقوس الاحتفال المنتشرة داخل المجتمع المحلي... خاليا فهو مرتبط بمجالات الحياة المعاصرة المتطورة انطلاقا من البحوث التي أنجزها علماء الأنثروبولوجيا في الغرب الذين اعتمدوا مقاربات عديدة تتقدمها الملاحظة بالمشاركة والتي أرخت إلى حد بعيد لمجتمعات متعددة وبينت خصوصياتها من خلال مقارنتها بالبيئات الأخرى.

تتمظهر أهمية دراسة أنثروبولوجيا الاتصال في محاولة فهمها كتخصص وعلم ومقاربة منهجية، والتي تسعى في ربط الإنسان بعاداته وتقاليده وثقافته داخل بيئته المحلية أو حتى مقارنته مع بيئات مماثلة أو مختلفة أخرى. كما أن التطور الحاصل في الوسائل الاتصالية المتعددة والمتشعبة استلزم تبيان أسس وسبل تطوير المفاهيم والأدوات الابستمولوجية المصاحبة لهذا التخصص مع السعي نحو ترقية الأهداف الكامنة وراءه. ونظرا لارتباط الانثروبولوجيا ببقية المجالات الأخرى: كالتاريخ، واللغة والدين والثقافة وطرائق الاتصال المتنوعة في الشكل والاستخدام وفقا للغاية المرجوة، فهي بذلك تقوم بإظهار خصوصية الأفراد أو الجماعات من حيث الثقافة، والسلوك سواء لفرد معين أو لجماعة بشرية ما في سياق ونسق معينين.

استهدفت الورقة البحثية سرد التطور التاريخي لأنثروبولوجيا الاتصال كتخصص علمي قائم بذاته؛ بكونه يعكس مفارقة بين بيئتان مختلفتان: تتمثل البيئة الأولى في البيئة الغربية (الذي يعتبره العديد من المختصين في الانثروبولوجيا منشأ التخصص)، أين يعتبر فيها مجال بحثي قديم يتسم بتراكمات علمية نظرية وميدانية ثرية في ظل اتساع مجال البحث وتشعب مواضيعه في علاقته بالإنسان محل الدراسة؛ أما ا لبيئة الثانية فهي تمثل البيئة المحلية والتي تُشكل الجزائر نموذجا لها والتي لا تزال مجالا جديدا وخصبا للبحث والدراسة ؛ مما يستدعي التفكير في مدى تطو ي هذا العلم وإبراز أهم المواضيع التي يمكن يعالجها مع تقديم تصورات مستقبلية نظريا وميدانيا في إطار الخصوصية الجزائرية المختلفة عن غيرها من البيئات الأخرى. في ضوء ما ذُكر طرحت الورقة البحثية التساؤل التالي: ماهية أنثروبولوجيا الاتصال وتاريخه وما هي مجالات البحث الجديدة في الفضاء الجزائري؟

انتهجت الورقة البحثية كل من المنهج التاريخي والتحليلي والمسحي بهدف الإجابة على التساؤل المطروح، إذ يهتم المنهج التاريخي بدراسة التطور التاريخي للظاهرة أو الحدث وفق سياق ها الزمني ، فلا يمكن دراسة ظاهرة معينة دون

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

الرجوع إلى تاريخها وتطورها عبر الفترات الزمنية من أجل تدوين خصائصها وعناصرها التي طبعت كل مرحلة على حدى؛ كما أنه يقوم ب "مراجعة الماضي من خلال آثاره المختلفة ومن ثم تحديد المشكلة موضوع البحث مع وضع الفروض المختلفة لها مع تحليل البيانات والمعلومات المتعلقة بها، ثم يقوم باختبار الفروض المختلفة حتى تتضح مجالات الاتفاق والاختلاف بينها مع الأدلة التاريخية التي حصل عليها مع عرض النتائج للنقد والتحليل للتعرف على مصداقيتها ودقتها". [1] بينما يقوم المنهج المسحي على تحليل المعطيات المتحصل عليها سواء عن طريق الوثائق أو من خلال البيانات الميدانية الناجمة عن التحقيق المنجز علاوة على تحليل وتعليل الظاهرة ثم السعي نحو تقديم الحلول أو إجابات علمية تطوره ابستيمولوجيا. يعد كذلك المنهج المسحي من "المناهج الرئيسية المستخدمة في إعداد البحوث الوصفية وتتم الدراسات المسحية من خلال جمع البيانات والمعلومات عن الظاهرة المبحوثة كما هي في الواقع من أجل التعرف على طبيعة وواقع هذه الظاهرة ومعرفة جوانب القوة والضعف فيها من أجل الوصول إلى تصور قد يقود إلى إحداث تغيير جزئي أو جذري على الظاهرة." [2] أما المنهج التحليلي فهو يساعد الباحث على دراسة وتحليل المعطيات المرتبطة بأنثروبولوجيا الاتصال. فكل الظواهر المرتبطة بالمجتمع تعتمد على المناهج المذكورة آنفاً ومنها الظاهرة الاتصالية التي تستقرأ المعطيات المتعلقة بالظاهرة المدروسة لتقديم تصور مستقبلي يقدم حلولا أو مقاربات جديدة للعملية الاتصالية بتداعياتها الراهنة.

أولا: قراءة في مفاهيم الدراسة مع نبذة تاريخية حول الانثروبولوجيا في الجزائر

يستوقفنا موضوع انثروبولوجيا الاتصال كتخصص قائم بذاته وكمقاربة منهجية تعني أساسا بدراسة وتفسير الظاهرة الاتصالية داخل المجتمع الاستهلال بشرح المفاهيم التي تشد إلى انثروبولوجيا الاتصال كظاهرة علمية واتصالية واجتماعية وكسلوك بشري ضروري وبكل العناصر ذات صله بها، مما يساعدنا على تقديم نبذة تاريخية حول هذا التخصص الذي يعد مجالا علميا جديدا في الجزائر، بالنظر إلى تاريخ الاهتمام به من الناحية العلمية وفي زمن إدراجه في المناهج التعليمية الجامعية أو التكوينية الأخرى.

1. مفاهيم الدراسة

الاتصال: هو "عملية التدفق الحر للمعلومات والبيانات والآراء عبر وسائل مختلفة، فقد يكون اتصالا مباشرا ... وهو الاتصال الذي يتم مباشرة بين الأفراد دون الاستعانة بأية أداة اتصالية وهو بمثابة فرصة كبيرة لتبادل المعلومات بين المرسل والمستقبل، وقد يكون غير مباشر وتستخدم فيه أداة من أدوات الاتصال، وقد يكون رسمي أي آلي يتم بين المستويات الرسمية بالطرق الرسمية أو غير رسمي... اتصال ذاتي واتصال عام وهو الذي يكون داخل المجتمع واتصال لفظي وغير لفظي." [3] يعد كذلك "عملية تبادل رسائل عبر قنوات في بعض الوسائل، حيث غالبا ما يصنف منظري الاتصال إلى نماذج التي تختلف في عمليات التبادل". [4] "ويتكون الاتصال من ستة عناصر هي: المصدر، الرسالة، الوسيلة الإعلامية، المستقبل، التأثيرات ورد الفعل". [5] فهي عملية تواصلية شاملة ومتكاملة وضرورية بالنسبة للفرد داخل المجتمع من حيث تفاعله وسلوكه الوجداني والرمزي. كما يعتبر "قوة مؤثرة في عديد من أوجه النشاط الأخرى الاجتماعية والثقافية والتربوية والسياسية والاقتصادية وقوة تؤثر وتتأثر بهذه الأنشطة والقضايا المختلفة". [6] كما يعد عملية يتم من خلالها تحقيق "أنشطة ذهنية (...) أنشطة سيكولوجية (...) وأنشطة ثقافية وسوسيولوجية". [7] ومهما يكن مضمون التواصل "الكامن أو الظاهر قد يُنظر إليه بطريقة مضمونية أو شكلية أوبنيوية. (...) تتداخل أربع ظواهر متميزة: الانتباه والإدراك والفهم والحفظ وأي تغيير في الموقف يستعمل العناصر المعرفية العاطفية و الندائية". [8] "وتستخدم كلمة الاتصال في سياقات مختلفة وتتضمن مدلولات متعددة فمنها بمعناه بالمفرد (Communication) تعني تبادل الأفكار والوسائل والمعلومات، وتشير في صيغة الجمع (Communications) إلى الوسائل التي تحمل مضمون الاتصال". [9] "وتصل أهمية الاتصال إلى الحد الذي يجعله يعتبر الصيغة التي تلخص بناء الثقافة والتنظيمات الاجتماعية في إطار النظرية

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

الانثروبولوجية." [10] ويصنف بارتلند نماذج الاتصال إلى "النماذج البنائية التي تبرز الخصائص الرئيسية للحدث أو الظاهرة أي المكونات وعدد وترتيب الأجزاء المنفصلة للظاهرة التي نصفها؛ (و) النماذج الوظيفية التي تسعى إلى تقديم صورة مطابقة للأسلوب الذي يعمل بمقتضاه النظام، وهي نماذج تشرح طبيعة القوى او المتغيرات التي تؤثر على النظام أو الظاهرة."[11]

في ضوء ما ذُكر يعد الاتصال من أقدم الممارسات البشرية وعاملا مهما للإنسان وظاهرة حتمية بكونه يمثل فعل التواصل الإنساني على المستويين المحلي والخارجي، حيث يمارسه الانسان داخل بيئته بُغية التأقلم مع محيطه والتعايش مع غيره، وقد تطور مع تطور الإنسان فكريا، وقيميا وفلسفيا ومن حيث الأهداف المرجوة من العملية الاتصالية، وحتى من حيث الوسائل التي يعتمد عليها خلال قيامه بفعل الاتصال بغيره سواء في بيئته المحلية أو الخارجية.

الانثروبولوجي – انثروبولوجيا- (anthropologie): هو "علم الإنسان أو علم الأجناس." [12] إذ ارتبطت الانثروبولوجيا بدراسة المجتمعات البدائية وعلاقاتها بمختلف الموضوعات على المستوى المحلي ، لذلك استدعى الأمر تطورًا في مناهج دراسة الإنسان كموضوع وكعنصر ضروري وجزء هام من المجتمع في علاقته بمحيطه. أما "من الناحية الاجتماعية تدرس الانثروبولوجيا الأجناس البشرية وأصولها وفروعها وانتشارها وتأثرها بعضها ببعض وما أنشأت من حضارات وثقافات ونظم اجتماعية وما اصطنعت من عادات وتقاليد وأساطير و عقائد ... فهي تدرس كل هذه الموضوعات من ناحية كونها تعبر عن ثقافة إنسانية معينة". [13] وهي بذلك تساهم في عملية ت أريخ وتتبع مراحل تطور وتفاعل الإنسان داخل بيئته في المحيطين المحلي والأجنبي. كما أن "تاريخ الانثروبولوجيا غير منفصل عن تاريخ الاستعمار والتبشير الأوروبي، فمنذ القرن السادس عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر واصل بحارة وتجار وإداريون ومبشرون إمداد الغرب بالمعلومات عن الشعوب الأجنبية (...) ولدت الانثروبولوجيا الأكاديمية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر في الوقت الذي كانت تتحصر فيه أوروبا الغربية لإتمام عملها الإمبريالي".[14]

انثروبولوجيا الاتصال: تاريخيا استعمل انثروبولوجيا الاتصال كمجال لأول مرة سنة 1967، من خلال اعتبار (Dell HYMES) أن اثنولوجيا السلوك والوضعيات ذات قيمة اتصالية. مما جعلها تخصص قائم بذاته ضمن العلوم الاجتماعية. وكانت أعمال قوفمان (GOFMANE) بمثابة الأرضية التي ساعدت على ظهور وتأسيس التخصص، إضافة إلى جورج هيبرد وشارل كولي الذين طوروا مفاهيمها. ومن المهامات المتعلقة بأنثروبولوجيا الاتصال كتخصص هو المقال المحرر من طرف دال (DALL) حول إثنوغرافيا الكلام، الذي يعد تمهيدا لترسيخ المفهوم أكاديميا سنة 1964 باقتراح علاقة اللغة والمجتمع؛ ثم انتقلت في السبعينات الى دراسة الأنماط والسلوك داخل المجتمعات بكونها ذات قيم اتصالية. وطور المفهوم أكثر جويل شرزر (Joel SHERZER) من خلال إقراره بإمكانية دراسة المجتمعات من خلال الملاحظة والمشاركة داخل المجتمع المحلي. وفي تسعينيات القرن الماضي تحولت أنثروبولوجيا الاتصال إلى دراسة الفعل الاتصالي داخل المجتمع. [15] وقد ساعد تطور البحوث الاتصالية من حيث الإشكالات المطروحة والمناهج والأدوات المستخدمة في دراسة الاتصال كظاهرة اجتماعية في تشكل مقاربات جديدة لفهم أدق للعملية التواصلية ومعالجة إشكالاتها المتشعبة. لذلك فمن الطبيعي أن يكون التخصص ناجم عن "تطور علم الاجتماع المعاصر، ونتاج بأهمية الأنساق الثقافية في فهم أنساق الاتصال، وهو التوجه الذي تفرعت عنه عدة اهتمامات لعل أهمها من الناحية النظرية نشأة توجه انثروبولوجيا الاتصال الذي تأسس في منتصف تسعينيات القرن الماضي". [16] وبالتالي فهو "شكل معين من أشكال البحث في العلوم الاجتماعية".[17] وهو بمثابة "تجربة انثروبولوجية" [18] كون الاتصال يتم في نسق ثقافي واجتماعي محدد وليس بمعزل عن المحيط بحيث يشارك فيه عدة أطراف في العملية الاتصالية.

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

من جهته حدد دال نموذج الكلام من خلال عدة عناصر: السياق، المشاركون، الغايات، الأفعال والنبرة، الوسائل، المعايير والأنواع. فأنثروبولوجيا الاتصال لا تعتمد على اللغة وعلى الإثنوغرافيا بدلا عن اللسانيات، لذلك فهي تهتم بدراسة معمقة لكل ما يربط الإنسان في مجتمعه ميدانيا لعدة جوانب: السلوكات والممارسات المتعددة. لكون الاتصال عملية هامة في الحياة البشرية.[19] يُلاحظ أن الغرب اشتغلوا كثيرا على انثروبولوجيا الاتصال كما قاموا بتطويره من حيث الموضوعات والمناهج وسعوا كذلك إلى تكييفه مع خصوصيات مجتمعاتهم التي تشد الى مختلف المجالات الملازمة للعملية الاتصالية.

النمط: يعني أسلوب وطريقة عرض، وبناء، وتنفيذ والتعبير عن الأفكار والدلالات والأشكال التعبيرية الأخرى. وقد انتقل من شكله التقليدي والبدائي نحو القالب العصري والحديث مما جعله متشعب مع باقي الاهتمامات الإنسانية.

2. انثروبولوجيا الاتصال في الجزائر: نبذة عن التاريخ والتكوين الأكاديمي

عرفت الانثروبولوجيا كتخصص معترف به في الجزائر إبان تأسيس أول معهد وطني للثقافة الشعبية في تلمسان سنة 1984، ثم تلاه المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الكراسك (CRASC) سنة 1992[20]؛ ثم فتح التخصص في الجامعات الجزائرية، كجامعة قسنطينة سنة 2000 بالتنسيق مع مركز الكراسك، ثم شراكة بين عدة جامعات جزائرية مع الكراسك منها: جامعة قسنطينة، جامعة تيزي وزو، جامعة بجاية، جامعة مستغانم و جامعة تلمسان سنة 2008، من حيث التكوين في الانثروبولوجيا ما بعد التدرج : الماجستير و الدكتوراه. كما اهتمت الجامعة الجزائرية (منها تلمسان، قسنطينة ووهران) بتدريس تخصص الانثروبولوجيا المرتبطة بمجالات محددة منها: "المخيال والممارسة، التربية، الأسرة، التاريخ والذاكرة." [21] فيما بقيت تخصصات علمية أخرى، لم تدرج بعد ضمن المناهج الدراسية على مستوى الجامعة. ثم أخذت تدرج شيئا فشيئا فيما بعد في الجامعات الجزائرية؛ ثم عممت على بقية الجامعات الجزائرية كتخصص في الليسانس في بسكرة (أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية)، الشلف، ورقلة (أنثروبولوجيا المجال والهوية)، تبسة (انثروبولوجيا عامة) وسيدي بلعباس، وفي تيزي وزو (تخصص أدب والأنثروبولوجيا)؛ وكذا البويرة، قسنطينة (أنثروبولوجيا ثقافية).

إلى جانب المؤسسات الجامعية نجد مخابر بحثية تعني بربط الأنثروبولوجيا بمختلف العلوم الاجتماعية والانسانية. فيما يخص بأنثروبولوجيا الاتصال: فقد أدرجت في كل من جامعة تلمسان ضمن مقياس يدعى: أنثروبولوجيا الاتصال (مقياس في الماستر)، وفي جامعة سوق أهراس (أنثروبولوجيا الاتصال)، وكذلك في جامعة المدية (أنثروبولوجيا والاتصال).[22] كما يتولى مركز الكراسك المتخصص في دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وبقية المقاربات العلمية الأخرى من خلال دراسة الإنسان في المجتمع بمختلف جوانبه وذلك ضمن أقسام بحثية منها: التاريخ والذاكرة، التربية والتكوين، المدن والأقاليم وأخيرا المخيال والسيرورات الاجتماعية مع مختلف وحداته (في وهران، قسنطينة والبليدة) التي تهتم باللغة والأدب والفنون والترجمة مع نظم تسمية المدن انطلاقا من البعد الانثروبولوجي، كما ينشر بعضها في شكل مقالات في مجلة المركز "إنسانيات".

ثانيا: فضاءات انثروبولوجيا الاتصال بين الواقع والعالم الافتراضي

1. فضاءات انثروبولوجيا الاتصال

لا يمكن أن تحدث العملية التواصلية بمعزل عن الفضاء الخارجي الذي يتكون من بيئات اجتماعية واقعية وممارسات رمزية متباينة في الزمن والمكان وفي التعامل والتفاعل؛ ويُقصد بالفضاء بالحيز العام الذي تتحقق فيه العملية الاتصالية سواء بالوسائل التقليدية الشخصية أو عن طريق الوسائل الاتصالية الحديث ة التي تعتمد على القاعدة الرقمية. إذ يتفرع الفضاء إلى عدة أنواع:

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

- المجال الرمزي: وهو الدلالات والمعاني التي تصاحب العملية الاتصالية؛ التي تتمظهر في مختلف الأشكال التعبيرية المتعددة: الثقافة، والموسيقى، والفنون، واللباس، والعادات البشرية المتعددة السلوكية منها تلك المرتبطة بتاريخه، ولغته، ودينه و توجهه الفكري، واللغة والدين والممارسات السياسية والاجتماعية والتي يمكن أن تؤثر أو تتأثر بها جماعة بشرية محلية أو خارجية.

- المجال الجغرافي: يُقصد به ا لمكان الذي تحدث فيه العملية الاتصالية، مثلا الفضاء الخاص أو الفضاء العام. ويضم المكان الجغرافي إلى جانب الحيز والعمران ومختلف فضاءات ممارسة العملية الاتصالية (المنزل، المدرسة، الجامعة، السوق، المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، المسجد، مراكز التكوين والتمهين، البلد...وغيرها) بعضا من الخصوصيات التي تتسم بها الجماعة البشرية التي تحتل هذا الفضاء، مما يربطه بكل من: المجال الرمزي وبالسياق واللغة، بحكم أن اللغة هي وسيلة تواصل رئيسية للإنسان.

- السياق: يقصد به العوامل الخارجية المصاحبة والمؤثرة في العملية الاتصالية، فهو يرتبط بالفترة التاريخية، العوامل السياسية، والاجتماعية، والثقافية والاقتصادية في البيئة التي تحدث فيها العملية الاتصالية ؛ إضافة إلى اللغة كوسيلة هامة لتحقيق الاتصال وهي العنصر المهم في تشكيل الرسالة، التي تحمل في طياتها دلالات ومعان تعكس فكر وسلوك الفرد مع خصوصياته الثقافية في النسق العام.

يعد الاتصال عملية تبادل اتصالي بين طرفين أو أكثر لتحقيق التواصل، يحدث في سياق معين يمثل الفترة الزمنية مع بقية العوامل الخارجية المؤثرة في العملية الاتصالية داخل فضاء مزدوج محدد: فبالإضافة إلى كونها فضاءات رمزية فهي أيضا تعد كذلك فضاءات مكانية (خارجية) تشمل الحيز الجغرافي ، الذي يحدث فيه الالتقاء، والتواصل، والتبادل، والتفاوض، والمكوث، والاستعمال، والتملك، والانطواء، والإقصاء والمواجهة؛ أما رمزيا فهي تشمل العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد داخل المجتمع بمؤسساته، وسلطاته، وعاداته وتقاليده وثقافاته وبقية العوامل والعناصر الأخرى. فلاتصال بقنواته التقليدية ، التي انتقلت من الأسلوب الشفوي إلى المكتوب ، فالجماهيري والاتصال الرقمي بمختلف قنواته الجديدة لئالوسائل الإعلامية والوسائل الاتصالية الشخصية؛ وقنوات حديثة المتمثلة في الوسائل الرقمية المرتبطة بالتكنولوجيا والتي تشكل الانترنت قاعدتها الرئيسية (فيس بوك، تويتر، يوتوب، المدونات الشخصية والمهنية، وبقية المواقع الإلكترونية الأخرى.

لذلك يمكن القول بأن انثروبولوجيا الاتصال هو تخصص علمي يقوم بدراسة الإنسان ككائن يتواصل مع غيره من بني جنسه كون العملية الاتصالية مرتبطة به منذ التاريخ القديم وهي بذلك تعد ظاهرة انثروبولوجية. منهجيا تعتمد البحوث الانثروبولوجية على عدة مقاربات منها: المقاربة الميدانية التي ترى أن "اكتشاف الواقع المعاش وسيرورة الأحداث والتصرفات لا يتأتى إلا عن طريق المعاينة الإمبريقية. كما أن هذه المقاربة تعتمد أساسا على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن بواسطة عدد من التصميمات كالدراسات الاستطلاعية ودراسة الحالة وتحليل المضمون والدراسات المسحية أو بما يسمى بالمسح الاجتماعي". [23] والملاحظة التي تقوم ب"مراقبة ومعاينة أفراد الشعب الذي تجرى عليه الدراسة في أثناء تأدية أعمالهم اليومية المعتادة، وكذلك المناسبات العامة التي يقيمها هذا الشعب كالحفلات والاجتماعات الدينية والشعبية وحلقات الرقص ومراسيم دفن الموتى وغيرها... ورصد الحركات والتصرفات وتسجيل ما يجدر تسجيله من حوارات وأغان وتراتيل وما إلى ذلك من التعبيرات التي يبديها الأفراد في هذه المناسبات". [24] وحسب ماري أوديل جيرو وآخرون كي "تكون هذه الملاحظة مثمرة يجب أن تتم بطريقة الألفة التدريجية للأشخاص ومستوياتهم والعلاقات التي تجمعهم والأدوار الاجتماعية التي يقومون بها". [25] كما يعتمد الدارس في مجال الانثروبولوجيا على

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

"المقابلة الحرة التي تتميز بالمرونة المطلقة". [26] إلى جانب استنادها على الوصف والتحليل ثم التفسير، وهي الخطوات نفسها التي ينتهجها الباحث في انثروبولوجيا الاتصال.

تعني أنثروبولوجيا الاتصال بدراسة الثقافة من حيث سيرورتها داخل نسق اجتماعي، ولكون الاتصال ذات قيمة أنثروبولوجية، فلا يمكن الاستغناء عن الاتصال في المجتمع. ومن زاوية دراسات انثروبولوجيا الاتصال فهي تدرس السلوك، والاستخدام والأهداف الكامنة وراء العملية الاتصالية، إلى جانب الوسائل المستخدمة والبيئات التي تحدث فيها بربطها بالسياق الزماني والمكاني وهو ما يعكس الفضاءان الرمزي والجغرافي؛ باعتبار "كل ثقافة أو جماعة اجتماعية ترتب وتستغل، تصاحب وتفسر المواضيع وفق قيمتها الاتصالية". [27] وبذلك تختلف من بيئة لأخرى ومن وسيلة لأخرى، وبخاصة وأن القيمة الاتصالية هي التي تمثل الجانب الانثروبولوجي للعملية الاتصالية.

2. تحول مقاربات ومواضيع أنثروبولوجيا الاتصال مع تطور الوسيلة

عرفت الدراسات الاتصالية تطورا كبيرا في الأدوات والتقنيات وبخاصة من حيث المواضيع المعالجة من خلال ربط الظاهرة الاتصالية بالخصوصيات الفكرية، والرمزية والسلوكيات والممارسات التي يقوم بها أفراد المجتمع المتنوعة سواء الشخصية منها، أو المؤسساتية، أو الجماعية أو المهنية على المستوى المحلي أو من خلال المقارنة ما بين البيئات المحلية المختلفة. كما أحدث تطور الوسائل الاتصالية تأثيرا في السلوك القائم بالاتصال، والمحتوى الاتصالي وحتى في الهدف الكامن وراء العملية الاتصالية؛ لذلك يمكن ربط الظاهرة الاتصالية داخل البيئة سواء المحلية أو غيرها بمدى التفاعل الذي تحدثه والذي من خلاله يمكن دراسته من المنظور الانثروبولوجي. كما أن دراسة الظاهرة الاتصالية لم تكن وليدة العصر الراهن ، بل مرت بمراحل عرفت تنظيرات فلسفية متعددة توافقا مع السياق والواقع المعاش واستجابة لمتطلبات التي يستهدفها الدارس للظاهرة. الأمر نفسه ينطبق على الوسائل الاتصالية الحديثة بمختلف قنواتها والتي أحدثت ثورة في التفكير والسلوك وحتى في عملية التفاعل مع الرسالة والمضمون. ولما عرف المجتمع تحولا من التقليدي إلى الشبكي والرقمي فإن أنثروبولوجيا الاتصال تحاول فهم الظاهرة الاتصالية داخل المجتمع والتأثيرات التكنولوجية على سلوك الفرد وفي نوع وكم المضامين التي يتم استقبالها مع تداعياتها الراهنة والمستقبلية وفق المقاربات الأنثروبولوجية إضافة إلى إمكانية ربط انثروبولوجيا الاتصال بدراسة العادات والثقافات والسلوك الإنساني داخل بيئته وفي شكل ونمط الوسائل الاتصالية التي توظفها في ذلك والغاية منها، وقد انتقلت الدراسة العلمية لها من شكلها الكلاسيكي القديم نحو الأسلوب الحديث مراعاةً للمستجدات الراهنة والمتواصلة التي صاحبتها التكنولوجيا.

في ضوء ما سبق يُلاحظ أن انثروبولوجيا الاتصال لا ترتبط بالتطور التكنولوجي الحاصل في الوسيلة الإعلامية فحسب، بل يرتبط أيضا بالتطور الفكري للإنسان الذي يسعى إلى فهم العملية الاتصالية التي تحدث داخل بيئته.

3. نحو التفكير حول مجالات دراسة أنثروبولوجيا الاتصال في الجزائر

ولأن الإنسان لا يزال يتطور ويبحث عن الوسائل الاتصالية التي تحقق له الرفاهية في محيطه، وفي وقت زمني قصير وبأقل تكلفة فإن الاتصال بدوره يتطور بتطور الإنسان كونه ملازم له، لذلك فإن علم انثروبولوجيا الاتصال من شأنه الاستمرار في البحث والتنقيب علميا وبمختلف الأدوات العلمية الأكاديمية عن سبل تحليل كل الظواهر الاجتماعية، والسياسية واللغوية والثقافية والقيمية والعقائدية والاتصالية التي تقدم الحلول البدائل لقضايا تبدو غامضة من غير القيام بدراستها وتحليلها مع مقارنتها بمختلف الظواهر الملازمة لها والمؤثرة عليها.

بين مسح مختلف الأعمال الأكاديمية التي أُنجزت على مستوى الجامعات الجزائرية التي أدرجت التخصص قد عنت بدراسة الظاهرة الاتصالية والإعلامية وفق المقاربة الانثروبولوجية؛ وقد حظيت الدراسات الإعلامية من حيث الموضوعات المتعددة والتي شملت الوسائل والجمهور والهدف من المضامين المرسلة حظا أوفر من الجانب الاتصالي

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

للتخصص، الذي يعد أشمل من الإعلام وأوسع منه من حيث الإشكالات والمواضيع والسياقات المتعددة. ويمكن تصنيفها إلى أطروحات ورسائل جامعية وبحوث ومقالات علمية علاوة على مشاريع واعدة مست الاتصال بشكليه الكلاسيكي منه والحديث. لكن بالرغم من الاهتمام اللافت بموضوع انثروبولوجيا الاتصال على المستوى الأكاديمي في الجزائر، يظل التفكير والبحث عن مجالات البحث والتحليل والاستنتاج مع فتح مواضيع جديدة مسايرة مع تطور التقنية من شأنه ان يدفع قدما بالدراسات التي تعني انثروبولوجيا الاتصال كتخصص ومقاربة.

وعليه، يمكن لأنثروبولوجيا الاتصال دراسة الوسائل الإعلامية التقليدية من حيث الاستخدام والتوجه والإشباعات والغايات مع إجراء مقارنة نظرية وميدانية مع البيئات المتعددة، إذ يمكن مثلاً دراسة الأشكال التقليدية للاتصال المتمثلة في: الشعر، والغناء، والأمثال المتداولة بين أفراد المجتمع عبر الأجيال والأزمنة المتعاقبة وشكل وأسلوب نطق واللغة المستخدمة في العملية الاتصالية: العامية، الفصحى،... وغيرها. يمكن أيضا دراسة نسب ودرجات مع توجهات مقروئية الصحف ومدى تأثر القار ئ بمضامينها مع أشكال وسبل تفاعله معها أو الغاية من استخدامها ؛ يمكن أيضا دراسة المضمون الثقافي الذي تبثه الإذاعات والتلفزيون المحلية، والإقليمية والجهوية أو الدولية ومدى الحفاظ على التراث واللغة المحليين، كما يمكن دراسة عادات الاطلاع على الصحف الإلكترونية، الفيس بوك كبيئة تفاعلية جديدة لممارسة ا لتجارة الإلكترونية ، والتواصل، والبحث والنشر، وأيضاً دراسة ونقد الصناعة الإعلامية الرقمية المتشعبة بالمضامين والوسائل التي تعتمد عليها بخاصة منها ا لوسائل التواصلية الرقمية وتأثيرها على جمهور المبحرين على الانترنت... وغيرها؛ وهو ما يحقق قفزة في البحوث الاتصالية من خلال مقاربتها انثروبولوجيا بمعنى الاهتمام والسعي نحو دراسة الاتصال القديم والرقمي انثروبولوجيا مما يتيح المجال من تخصص علمي جديد انثروبولوجيا الاتصال الرقمي الذي بإمكانه أن يطور ابستيمولوجيا وميدانيا في الجزائر.

الجدير بالذكر أن الاتصال الرقمي عامة ووسائل الإعلام الجديدة تحديداً قد لعبت دورا محوريا في تسويق الهوية الثقافية المحلية وحتى الأجنبية بمختلف رموزها ومعانيها وأهدافها وأشكالها عبر مختلف قنواته، والتي يتعرض إليها جمهور المستخدمين الذين يعتمدون على عناصر مختلفة تدخل ضمن الهوية منها: اللغة، والفن، والرسم، والزخرفة، والموسيقى، والتاريخ، والتعبير الحضاري، والآداب والشعر، والفنون اليدوية والحرفية وكل ما له صلة بالذوق والقيم الجمالية والعمران، وهو ما يفسح مجال المقارنة مع البيئات الخارجية.

إن مجالات البحث والدراسة في مجال أنثروبولوجيا الاتصال بخاصة منه الرقمي في ظل التطور التكنولوجي المتواصل، متشعبة المواضيع ومتنوعة المجالات، حيث يستلزم ربطها بالهدف الكامن وراء دراسة الظاهرة بهدف الخروج بنتائج تبين خصوصية البيئة التي خضعت للتحليل والدراسة.

خاتمة:

إن المتتبع لمراحل التطور التاريخي للعملية الاتصالية يجدها انتقلت من الطريقة التقليدية نحو النمط العصري المتسم بتشعب قنوات ووسائط الإعلام والاتصال الجديد بمختلف تفرعاته الشخصية والمهنية، سواء الخاصة منها أو العمومية والتي تتخذ من القاعدة الرقمية أساس نقل ونشر المضامين الاتصالية المتعددة التي لم تكن بسيطة من حيث نوع وطبيعة الرسائل التي تنتجها بل أضحت صناعة تقوم على استثمارات مادية وبشرية ضخمة كما تسعى في مواكبة التقنية الجديدة باستغلال الوسائل الرقمية بتطوراتها الآنية التي تحدث، بشكل مستمر عبر العالم. وقد أنتج هذا التطور في الوسيلة تطور المقاربات والمواضيع التي تندرج ضمن انثروبولوجيا الاتصال بمختلف موضوعاته ا البحثية ومجالاتها وفي السلوكيات وأنماط التفكير الحاصلة في المجتمع بهدف فهم العملية الاتصالية من جهة ولتطوير هذه المقاربة القديمة والمحدثة في الوقت ذاته بحكم التحول المجتمعي عبر فترات تاريخية متعاقبة.

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

في الجزائر التي تعد مجالا خصبا للدراسات التي تدخل ضمن انثروبولوجيا الاتصال، فإن إمكانية تطوير هذا المجال في المواضيع والمناهج قائمة وممكنة وذلك من خلال تقاطعها مع بقية التخصصات الأخرى التي من شأنها أن تغذيه في المعطيات والأدوات المنهجية والابستمولوجية لتعطي صورة واضحة حول صور وأنماط الاستخدام، والتعامل والتفاعل مع الاتصال الذي يعد ليس قيمة فحسب، بل تجربة أنثروبولوجية.

الهوامش:

[1] عبد الله الكمالي، كتابة البحث وتحقيق المخطوطة خطوة خطوة، ط 1، (لبنان: بيروت: دار الحزم، 2001)، ص ص 21_ 22.
[2] فارس رشيد البياتي، الحاوي في مناهج البحث العلمي، ط 1، (الأردن: دار الأسواق العالمية، 2018)، ص 93.
[3] إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات عصر العولمة: مصطلحات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية وإعلامية، (د، ب، ن: د، د، ن، 2003)، ص ص 18 – 19.
[4] Marcel DANICIP, Dictionary of media and communication, (New York: Armonk, 2008), 69.
[5] منى سعيد الحديدي، شريف درويش اللبان، فنون الاتصال والإعلام المتخصص، ط 1، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2009)، ص 26.
[6] المرجع نفسه، ص 30.
[7] منال طلعت محمود، مدخل إلى علم الاتصال، (د، ب، ن: د، م، ن، 2001)، ص 18.
[8] جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمد الأسعد، ط 1، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2011)، ص 53.
[9] حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، ط 1، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1998)، ص 15.
[10] شارلوت سيمور سمير، موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية، ترجمة مجموعة من الأساتذة تحت إشراف: محمد الجوهري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009)، ص 66.
[11] حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، ط1، (القاهرة: سربية للطباعة والنشر، 1998)، ص 46.
[12] محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا، (مصر: القاهرة، 2008)، ص 70.
[13] منصور مرقومة، الانثروبولوجيا، علم الانسان، المنهج والموضوع، منشورات مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم، ص 6.
[14] إشراف بيار بوينت، ميشال غيزار، معجم الإثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، ط 2، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر "مجد"، 2011)، ص 65.
[15] رضوان بوجمعة، 2006- 2007، "أشكال الاتصال التقليدية في منطقة القبائل: محاولة تحليل أنثروبولوجي "، أطروحة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، ص 29.
[16] رضوان بوجمعة، انثروبولوجيا الاتصال: دراسة في بعض الأبعاد النظرية، المجلة الجزائرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 1، العدد 1، 2013، ص 178.
[17] المرجع نفسه، ص 179.
[18] المرجع نفسه، ص 185.
[19] المرجع نفسه، ص 179.
[20] المركز الوطني للبحث في علم الإنسان الاجتماعي والثقافي (CRASC)
[21] مجاهدي مصطفى، منصور مرقومة، فؤاد نوار ، تخصص الانثروبولوجيا في الجامعات الجزائرية، في: مستقبل علم السوسيو أنثروبولوجيا، مجلة إنسانيات، العدد 27، 2005، ص ص 27- 38 بالتصرف.
[22] سليمان بن قيلة، واقع الانثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية بعد أكثر من ربع قرن من الاعتراف الأكاديمي، مجلة التغيير الاجتماعي، العدد 3، 2017، بالتصرف.
[23] منصور مرقومة، مرجع سابق، ص 31.
[24] منصور مرقومة، مرجع سابق، ص 32.
[25] منصور مرقومة، مرجع سابق، ص 33.
[26] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[27] Yves WINKIN, anthropologie de la communication, de la théorie au terrain, nouvelle édition, (France : Essai, Edition du Seuil, 2001), p 126.